من روائع البيان النبوي

د. غالب محمد الشاويش*

عن أنس. رضي الله عنه قال : عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لو كان لابن آدم واد من ذهب، أحب أن يكون له وادياً آخر، ولن يملأ فاه إلا التراب، والله يتوب على من تاب) . وعن أنس. رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب) .

في هذين الحديثين الشريفين، يتحدث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن جشع الإنسان وطمعه في جمع المال وتحصيله، حتى وصل به الطمع أنه لو كان له واد ذهب لأحب ثانياً، ولو أن له واديين من مال، لابتغى أن يكون له واد ثالث، ولو كان له ثالث، لأراد رابعاً وهكذا ... فالجشع في جمع المال، والحرص عليه، له آثار سلبية سيئة على المجتمع.

وقد بدأ الحديثان الشريفان، بحرف الشرط «لو»الذي يفيد التمني من باب التوسع. وهي تدخل على الممنوع والمحال، والمحال هو المتمنى.

فـ «لو» عند النحويين حرف امتناع لامتناع، أي امتناع الجواب، لامتناع فعل الشرط. ومعنى ذلك أن «لو» في الحديث النبوي الشريف، أفاد أن ابن آدم، لم يتحقق له في الجواب، واد من ذهب، أو واديان من مال، بسبب عدم تحقق فعل الشرط في كلا الحديثين.

فالمتمنى بحرف «لو» يتعلق بشيئين، حيث يستحيل أحدهما، لاستحالة الآخر.

وقد نص الحديثان الشريفان على ذكر ابن آدم، لأن المقصود منه هو «الجنس» فيشمل عموم الجنس البشري، رجلاً كان أو امرأة، مسلماً أو غير مسلم.

وجاء الأسلوب بتقديم الجار والمجرور «لابن آدم» لإفادة التخصيص والتوكيد، أي تخصيص المسند «لابن آدم» بالمسند إليه وهو «واد من ذهب» «واديان من مال».

ومعنى ذلك أن «ابن آدم» وحده لا غيره من مخلوقات الله، هو الذي يحب أن يكون له واد من ذهب، أو واديان أو ثلاثة، وهذا يدل على شدة حبه للمال، وحرصه عليه.

والذي يلاحظ أن «الذهب» قد ذكر في الحديث الأول، وأن «المال» قد ذكر في الحديث الثاني، فما السر في ذلك؟.

لعل السر في ذلك هو أن كلمة «ذهب» ذكرت من باب التخصيص، لأنه افضل أنواع المال. فالقلوب دائماً تتعلق به أكثر من غيره، كما أنه يتناسب مع سياق الحديث الذي يتضمن واديين من ذهب، فذكر التخصيص مع الواديين فيه تناسب في السياق.

واما في الحديث الثاني، فقد ذكرت كلمة «مال» وهو من باب «العموم» حيث يتناسب مع سياق الحديث الذي يتضمن أودية ثلاثة. والمال سمي بهذا الاسم لكونه مائلاً، أي تميل القلوب إليه. مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ سورة الفجر، آية ٢٠. ولكونه زائلاً لا يبقى. ولذلك يسمى عرضاً. قال الله تعالى : ﴿لو كان عرضاً قريباً، وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾ سورة التوبة، بعض آية ٤٢.

وقد جاءت كلمتا «ذهب» و«مال» نكرتين، للدلالة على التعظيم والتكثير، تعظيم من جهة، لأن المال عنصر مهم في حياة الناس، فهو يجعل صاحبه ذا شأن عظيم في المجتمع. وتكثير من جهة، لأنها ذكرا في سياق الأودية من ذهب أو من مال.

وكذلك كلمة «واد» جاءت نكرة، وهي توحي بمعنى العظمة والسعة، فهذه الوديان عظيمة الاتساع حيث تتسع لكثير من الذهب والمال.

لقد جاء التعبير النبوي بالفعل «أحب» في الحديث الأول، وهو قوله عليه السلام «أحب أن له وادياً آخر». وجاء التعبير بالفعل «ابتغى» في الحديث الثاني، وهو قوله عليه السلام : «لا تبغى وادياً ثالثاً»، فما السر في تنوع هذه الأسلوب؟.

لعل السر في ذلك يعود إلى طبيعة السياق. فالحديث الأول، يشير إلى واد من ذهب، والذهب يعد من انواع المال الذي يحبه الإنسان، ويفضله على غيره من الأموال.

فالفعل «أحب» يفيد مجرد الميل النفسي، والإحساس العميق بالرغبة الشديدة لدى الإنسان في الحصول على واديين من ذهب. فالحب شعور مطمور في عالم النفس البشرية، تحركه العوامل الحسية والمعنوية، حيث يبقى الإنسان يعيش على سفينة الحياة، منتظراً وصول الأمل إليه.

وحب الإنسان لزينة الحياة الدنيا، ومنها الذهب، دائماً مستمر، لذا جاء التعبير النبوي بقوله : «وادياً آخر» ولم يقل «وادياً ثانياً»، لأن كلمة «آخر»، تصلح لأن تأتي وراء كل عدد، وهذا مما يؤكد على استمرارية الإنسان في حبه للمال وجمعه، فهو يتمنى الحصول على واد ثان، فإذا ما حصل عليه، يتمنى وادياً آخر، وإذا ما حصل على الآخر فهو يتمنى الآخر وهكذا.

ويؤيد ذلك، الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ «قلب الشيخ شاب في اثنتين : في حب الحياة، وكثرة المال».

فالشاب يتمتع بالصحة، وبطول العمر، ودوام الاستمتاع بملذات الحياة ومسراتها، وكذلك قلب الشيخ، فإنه يشبه قلب الشاب في هذا الجانب.

اما الحديث الثاني، فقد جاء التعبير بالفعل «ابتغى». وهذا الفعل على وزن «افتعل». ومن معانيه عند علماء اللغة، هو الجد والطلب. فالواديان من ذهب، فيهما إغراء شديد لابن آدم، فهو يجد ويسعى في طلب الوادي الثالث. فالأمر هنا ما عاد شعوراً باطنياً يعتمد على مجرد الشعور بالحب والأمل، كما هو الشأن في التعبير الأول، بل أن الأمر في التعبير الثاني، يعتمد على الحركة والسعي، والجد والمثابرة في الحصول على الوادي الثالث. فالفعل «ابتغى» إذن، يتناسب مع سياق الحديث الذي يتضمن أودية ثلاثة.

ولننظر في البيان النبوي الشريف، نظرة بلاغية متأنية، حيث يقول عليه السلام في الحديث الأول «ولن يملأ فاه إلا التراب».

وفي الثاني : «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب». ففي الحديث الأول، ذكر حرف النفي «لن»، وذلك للتأكيد على أن التراب، هو الذي يملأ فاه ابن آدم. بينما في الحديث الثاني، جاء التعبير بحرف النفي «لا»، لكي ينفي أن يكون الذي يملأ جوفه شيء آخر غير التراب.

كما نلحظ ايضاً أن كلمة «فاه» مضافة إلى الضمير ذكرت في الحديث الأول، بينما كلمة «جوف» مضافة للاسم الظاهر «ابن آدم»، ذكرت في الحديث الثاني، فما السر البلاغي في ذلك؟.

إن السر يكمن في بلاغة الحديث الشريف. فكلمة «فاه» قد اختيرت ـ والله اعلم ـ السببين:

الأول ـ من حيث السعة. فعندما ذكر الواديان المملوآن بالذهب، حسن ان يذكر معهما كلمة «الفم» لانها تتناسب مع ذكر الواديين، فسعته للتراب، أقل من سعة «الجوف» الذي سستحدث عنه فيما بعد، بإذن الله.

الثاني : من حيث اللذة، فللغم وظيفتان : حسية ومعنوية. فأما الحسية، فهي تتعلق بلذة الأكل والشرب الذي قد يكون حلالاً وقد يكون حراماً، فالإنسان يتذوق الطعام والشراب عن طريق اللسان الموجود بالفم.

وأما الوظيفة المعنوية، فالفم يحتوي على اللسان الذي يتلذذ بالقول الحسن، الذكر والتسبيح، أو بالقول البذئ، كشتم الناس والنيل منهم. ولذا حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من خطورة هذا الفم، حيث سئل عن اكثر ما يدخل النار؟ قال «الاجوفان، الفم والفرج» والسبب في ذلك لانه يحتوي على اللسان، فهو أداة جارحة، تستعمل للخير، كما انها تستعمل للشر.

وقد اضيف الفم للضمير الذي يعود على ابن آدم في قوله : «فاه» بسبب الإيجاز والاختصار، وللعلم بالاسم الظاهر ـ وهو ابن آدم ـ حيث مر ذكره في اول الحديث.

أما كلمة «الجوف» فقد اختيرت في الحديث الثاني، لأنها مناسبة للسياق. جاء في لسان العرب : الأجوفان : البطن والفرج، لاتساع أجوافهما.

وقد وردت كلمة «الجوف» في القرآن الكريم قال الله تعالى ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ سورة الاحزاب،آية ٤.

بمعنى : باطن الإنسان، صدره وبطنه. ومن المعروف أن «الجوف» مقر الاعضاء الرئيسة في الجسم ما عدا الدماغ.

فالجوف جزء من الإنسان، وهو أوسع شيء فيه، حيث يشمل البطن، الذي يكون مركزاً لشهوة الطعام والشراب.

فإذا كان «الجوف» أوسع شيء في الإنسان، فإنه قد ناسب ذكره مع الأودية الثلاثة، لأنه يتسع لكمية من التراب، أكثر من أي عضو أجوف آخر، يكون في الإنسان.

ومن هنا، فقد اختيرت كلمة «الجوف» لاتساعها، لكي تتناسب مع سعة الأودية الثلاثة، التي سوف تتسع إلى كثير من المال.

كما أن ذكر «الجوف» أيضاً، يتناسب مع رغبة ابن آدم الشديدة في جمع المال الكثير. هذا التناسب، آت من كون أن «الجوف» هو المحل للقلب. والقلب وحده، هو الذي يرغب في الحصول على المال. وهو الذي يحب جمعه وكنزه، كما أنه يحرص عليه، وليس للجوف، حظ من ذلك.

وقد أضيفت كلمة «جوف» للاسم الظاهر «ابن آدم» دون الإضافة إلى ضميره «جوفه»، وذلك لأن التعبير بالأسم الظاهر في هذا المقام أبلغ واقوى في إبراز المعنى، وزيادة تمكنه في النفس من التعبير بالضمير. ومعنى ذلك أن جوف ابن آدم سيملأ بالتراب، بسبب علة الطمع والجشع، ورغبة الإنسان الشديدة في حصوله على أودية ثلاثة من المال، لذلك جاء التعبير بالأسم الظاهر دون الضمير، مناسبة للسياق، واظهاراً للمعنى المراد.

بقي أمر آخر جديد بالذكر، وهو قوله عليه السلام في الحديثين : (ولن يملأ فاه إلا التراب). (ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب).

فالأسلوب هنا في الحديثين، قصر. والقصر في اللغة : الحصر والحبس وقال بعضهم : هو في اللغة، عدم المجاوزة إلى الغير. فهو من قصر الشيء على كذا، إذا لم يتجاوز به إلى غيره.

وأما معناه في اصطلاح البلغاء : «فهو تخصيص شيء بشيء، أي تخصيص موصوف بصفة، أو صفة بموصوف، بطريق مخصوص».

فالتعبير النبوي ـ في الحديثين الشريفين السابقين ـ قد قصر «الفم» و«الجوف» على التراب. وهذا من قصر الموصوف على الصفة، بمعنى أن هذه الصفة «التراب» قد ثبتت للموصوفين وهما : الفم والجوف.

وتقديم «المفعول» «فاه» في الحديث الأول، والمفعول «جوف» في الحديث الثاني، على الفاعل «التراب» في سياق اسلوب القصر، يفيد هذا التقديم التركيز على الفاعل، وهو التراب. بمعنى أن التراب وحده، هو الذي يملأ الفم أو الجوف، وليس غيره من الأجناس الأخرى، كالدود أو الرهل، أو الحصى، أو نحو ذلك.

وكذلك تقديم المفعول به، وهما : «الفاه» و«الجوف»، على الفاعل «التراب»، فإنه يفيد التخصيص والتعيين. ومعنى ذلك أن

الأجوفين : «الفم» و«الجوف» هما اللذان يختصان بالتراب، دون غيرهما من اعضاء الإنسان الأخرى. وإذا كان ذكر التراب مقصوداً في نص الحديث، فما الحكمة من ذكره؟.

لعل السر من ذلك هو التذكير بخلق الإنسان من تراب، ثم إعادته في الأرض وإخراجه منها ليوم البعث والحساب. قال الله تعالى ﴿منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ «سورة طه، آيه ٥٥». فالإنسان مهما ملك من الأموال، فإن مصيره سيكون إلى التراب.

ومن جهة أخرى، فإن التراب، يذكر بأمنية الكافر يوم القيامة. قال تعالى ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا﴾ سورة النبأ، آية ٤٠. يقول ابن عطية في تفسير الآية : «قيل إن هذا تمن أن يكون شيئاً حقيراً، لا يُحاسب ولا يُلتفت إليه. وهذا قد نجده في الخائفين من المؤمنين». كما يذكر التراب بحقارة ما يوضع في افواههم وجوفهم. وهو التراب، بعد ما كانت تمتلئ بأصناف الطعام، وأنواع الشراب. وقد عرف عن العرب، أنهم إذا استحقروا شيئاً نسبوه إلى التراب، فقالوا: «أحقر من التراب».

لم يحصل في كفه غير التراب. وكذلك هم لم يحصلوا من جمع المال وكنزه إلا التراب. وعند النظر في اسلوب البيان النبوي الشريف، نرى التنويع في العبادة، مما يبعث على تشويق القارئ، واعمال فكره، وابعاد الملل والضجر عنه. ففي الحديث الأول، قدم لفظ الجلالة «الله» وهو قوله عليه السلام : «والله يتوب على من تاب». وفي الحديث الثاني قدم الفعل المضارع «يتوب» وهو قوله عليه السلام:«ويتوب الله على من تاب». فما السر في ذلك؟.

إن تقديم المسند إليه ـ وهو لفظ الجلالة ـ في الحديث الأول، إنما يفيد التوكيد والاختصاص. ومعنى ذلك، أن التوبة من اختصاص الله سبحانه وتعالى. فالله وحده هو الذي يقبل التوبة، ويتوب على من يشاء من عباده، ولا يملك سواه هذه الصفة أو هذا الاختصاص.

قال تعالى ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾ سورة الشورى آيه ٢٥.

وتقديم لفظ الجلالة، جاء في معرض الحديث عن ابن آدم، الذي يحب أن يكون له واديان من ذهب، فجاء الخطاب بالجملة الأسمية، لأنها آكد وأقوى في بيان أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتوب على من يشاء من عباده. فعند ذلك يستشعر ابن آدم بعظمة هذا الخالق الذي يقبل التوبة. فلذا تجده يرتدع، ويرجع عن طمعه وجشعه وحرصه، ويتوب إلى الله، بينة صادقة مخلصة، قبل أن يملأ فاه التراب. وأما في الحديث الثاني، فقد جاء تقديم الفعل المضارع «يتوب» وهو قوله عليه السلام «ويتوب الله على من تاب».

لقد جاء الخطاب بالجملة الفعلية، بصيغة المضارع. وهذا الأسلوب يفيد التجدد والاستمرار. بمعنى أن باب التوبة متجدد ومستمر، عند الله سبحانه وتعالى، لمن تاب وأناب، وهذا يجعل النفس البشرية، تشعر بالأمن والأمان، وذلك مما يسهل عليها التفكير في ترك الطمع والجشع، والعودة إلى الله بقلب سليم. كما أن ذكر المسند «يتوب» والمسند إليه «الله» لفظ الجلالة في البيان النبوي، يفيد تشويق السامع، وترغيبه من جهة، وتحقيق وقوع المسند من جهة أخرى. ففي ذكر لفظ الجلالة «الله» طمأنينة لأبن آدم، وسكينة له. وفي ذكر التوبة ترغيب وتشويق له. فالتوبة متحققة الوقوع، لأن فاعلها هو الله سبحانه وتعالى من جهة، كما أن في ذكرها ترغيباً وتشويقاً للجنس الآدمي من جهة أخرى. كما يوحي تعدد البيان النبوي بالفعل «يتوب»، التركيز على التوبة، لأن مجال الجشع والطمع أكثر، حيث نرى أن التعبير البياني، يتحدث عن إنسان أكثر طمعاً، وأشد حرصاً من الأول. فهو يريد أن يكون له واد ثالث من المال.

والذي يلحظ أن الفعل «يتوب» قد عدي بحرف الجر «على» وهذا يدل على معنى قبول التوبة عند الله عز وجل. كما يفيد حرف الجر «على» معنى العلو والاستعلاء، وهذا يدل على أن التوبة آتية من الأعلى، أي من عند الله عز وجل، فهو صاحب الشأن في هذا الأمر، فإن شاء قبل التوبة، وإن لم يشأ ردها إلى صاحبها، لأنه قد أخل بشرط من شروط التوبة. وقد جاء التعبير باسم الموصول «من» في قول الرسول ﷺ ـ «والله يتوب على من تاب»، و«يتوب الله على من تاب» لأنه يفيد العموم والشمول. بمعنى أنه اسم الموصول «من»، مشترك بين المفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث. فاستعماله مقصور على العقلاء، والأسباب بلاغية، ويستعمل لغير العاقل.

يقول الله تعالى : ﴿ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض﴾ يونس،٦٦. فجاء اسم الموصول «من» في الآية، ليفيد العموم، لمن في السموات والأرض، من عقلاء، وغير عقلاء على حد سواء. والتعبير باسم الموصول «من» في سياق التوبة، ليدل دلالة واضحة على أن قبول التوبة مفتوح لجميع الناس. فاسم الموصول «من» هو الذي يتناسب مع سياق الحديث. وإسناد الفعل المضارع «يتوب» إلى الله عز وجل، وإسناد الفعل الماضي «تاب» للضمير هو العائد على اسم الموصول «منْ»، له دلالة معنوية في البيان النبوي الشريف. فالفعل المضارع «يتوب»، يفيد التجدد والحدوث، ومضمون ذلك، أن الله سبحانه وتعالى، لا يملُّ من توبة العبد، فكلما عاد الإنسان إلى المعصية، ثم رجع عنها، فالله يتوب عليه وهكذا. وأما مجيء الفعل «تاب» في جانب الإنسان بصفة الماضي، ليدل دلالة واضحة، على تحقق وقوع التوبة من ابن آدم شريطة أن يلتزم بشروطها، ولذا استحق أن يتوب الله عليه. وهكذا يُصور لنا البيان النبوي شخصية الحريصين على جمع المال، والمصير الذي سيؤولون إليه.

* كلية التربية للبنات ـ الأقسام الأدبية ـ الرياض